القصور الإسلامية في الأندلس

بقلم الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

ما كاد المسلمون يوطدون أقدامهم فى الأندلس بعد الفتح ، ويخضعون هذه البلاد لسلطان الخلافة الأموية بدمشق — حتى انبعث بينهم الصراع القبلى الذى كان كامناً فى نفوسهم ، وأصبحت الأندلس فى عهد الولاة التابعين لخلافة دمشق مسرحاً للفتنة والفوضى ومرتعاً خصباً للاضطراب مدة ثلاث وأربعين سنة . وقد افتتح هذا العهد البغيض بمقتل الأمير عبد العزيز بن موسى ، وكان أبوه موسى بن نصير فاتح الأندلس قد استخلفه عليها بعد أن قفل إلى المشرق سنة ٩٥ للهجرة (٧١٣م) ، وانتهى بتغلب الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى المعروف بعبد الرحمن الداخل على سرير الملك بقرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) .

ثم بدأ عصر بنى أمية فى الأندلس ويعتبر امتداداً لعصرهم فى المشرق . ومؤسس هذه الأسرة فى الأندلس هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى استطاع أن يفر إلى المغرب الأقصى ، ويعبر الزقاق[1] إلى الأندلس ، واستطاع بفضل ما أوتى من ألمعية أن يؤسس ملكاً بعد فنائه ، وقد قال عنه أبو جعفر المنصور عدوه اللدود : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ؛ فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مراقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقصة سياسته ، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته : ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه ! »[1]

وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة ، ويستقيم أمره بها حتى بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار . ومنذ ذلك العهد بدأ فن العمارة يتلمس طريقه فى الأبنية الدينية والمدنية ؛ وجامع قرطبة شاهد صدق على هذه الحركة الكبرى فى البناء والتشييد ؛ إذ يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بل العالمية فى العصر الوسيط : ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلف البذور الأولى للفن الأندلسى المغربى ، وقد أخذت زخارفه تشع فى المشرق والمغرب ، فأثرت فى الزخرفة المسيحية والإسلامية على حد سواء ، وأوحت قبابه القائمة على هياكل بنائية من الضلوع المتقاطعة ابتكار القبوات القوطية ، التى انتشرت فى العصر الأوربى الوسيط .

هذا هو العصر الأموى الذى نبت فيه الفن الإسلامى بالأندلس ، وما لبث أن ترعرع فى العصور التالية حتى وصل إلى ذروة نضارته فى عصر بنى نصر ، ثم هاجر هذا الفن إلى المغرب بعد أن طُرد من بلاده التى وُلد فيها

(١) هكذا يسمى العرب مضيق جبل طارق .

(١) المقرى : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » تحقيق محيى الدين عبد الحميد ج ١ ص ٣١٠ .

على أثر الاسترداد المسيحى ، وقدر له أن يقضى فيه البقية الباقية من حياته حتى نضب معينه ، وذبل عوده ، وقضى عليه بالفناء ! .

ولا نود أن نطيل الحديث عن هذا الفن ، وإنما قصدنا أن ندرس منه ناحية جديرة بالبحث هى القصور التى بناها الخلفاء والملوك المسلمون فى إسبانيا فى عهد بنى أمية ، وفى عهد ملوك الطوائف الذين ورثوا ملك الأمويين ، ثم فى عهد دولتى البربر المرابطين والموحدين ، وفى عهد بنى نصر الذين اختتم بهم الإسلام حكمه فى الأندلس.

وكان الأمراء والخلفاء يشيدون قصور الحكم بجوار المساجد الجامعة ، وكانوا يطلقون عليها اسم « دور الإمارة » . على أنهم كانوا يلتمسون الراحة فى بعض الأحيان ، فكانوا يعمدون إلى بناء قصور للراحة واللهو بعيداً عن الحاضرة ؛ ليتمكنوا من الاستغراق فى الترف ، والاستنامة إلى حياة اللهو والنعيم التى لا تتاح لهم فى مقر الحكم بالحاضرة . وكانت هذه القصور تتخذ مظهراً عمرانياً شديد الشبه بالمدن الصغيرة ؛ فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته ، ومن متنزهات ومحال للوحش فسيحة ومسارح للطيور مظللة الشباك وأسواق وحمامات وفنادق ودور للصناعة ومساجد وغير ذلك .

غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة ؛ فما أسرع ما كانت تنتهب وتسلب على أثر سقوط الأسرة الحاكمة ، كما حدث فى قرطبة عندما تداعى سلطان الخلافة القرطبية ، فعم النهب والسلب ، وفى ذلك يقول ابن حيان : « . . . وانكدر بإثر وفاته ابن باشة هدام القصور ومبوّر المعمور ، وكان من التبجح فى اللؤم ، والالتحاف للشؤم . مع دناءة الأصل والفرع وتنكب السداد ، وتقيّل الفساد —على ثبج عظيم ، بيده بادت قصور بنى أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيعة ، قدّمه بن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة ، فاغتدى عليها أعظم آفة ، وباع آلاتها من المرمر ومثمن العمد ونضار الخشب وخالص النحاس وصافى الحديد والرصاص بيع الإدبار »[1].

وكذلك كان أمر قصور الزهراء التى شرع الخليفة عبد الرحمن الناصر فى بنائها عام ٣٢٥ هـ (٩٣٦) ؛ إذ هدمها البربر فى ٢٣ من ربيع الأول سنة ٤٠١ (٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، وذبحوا حاميتها . ويروى ابن أبى زرع كيف تهدمت قصور الموحدين بمراكش بعد انقضاء سلطانهم[2]

ويغلب على الظن فى أسباب تخريب هذه القصور أن الإسلام يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء ؛ فالدوام لله فقط ، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين الإسلامى ، ويشف عن تحد للألوهية . وكان رجال الدين يترصدون الملوك ، وينتقدون كل أعمالهم ، وكان عبد الرحمن الناصر كلفاً بعمارة القصور عملا بقوله :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان ؟
إن البناء إذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظيم الشان[3]

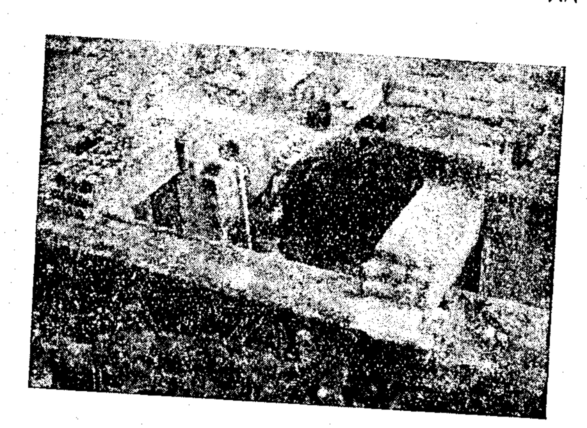
وكان يلقى من زجر القاضى منذر بن سعيد البلوطى وتأنيبه ما يجعله يبكى ، وقد قال له يوماً : « فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهى دار القرار ومكان الجزاء » . ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته والإسراف فى الإنفاق عليه بكل كلام جزل وقول فصل .

وكان يحذره فجأة الموت ، ويدعوه إلى الزهد فى

(١) ابن بسام الشنتريني « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » القسم الأول — المجلد الثانى ، القاهرة عام ١٩٤٢ ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) ابن أبى زرع : « روض القرطاس » ج ٢ ص ١١٠ .

(٣) « نفح الطيب » ج ٢ ص ١١٠ .


بقايا من قصور الزهراء


بقايا قصر الخلافة بمدينة الزهراء

هذه الدار الفانية ، ويحضه على اعتزالها والرفض لها ، والندب إلى الإعراض ، عنها والاقصار عن طلب اللذات ونهى النفس عن اتباع هواها . وكان الخليفة فى كل مرة يضج بالبكاء ، ويندم على ما سلف له من فرطه[1] .

* * *

قصور بنى أمية بقرطبة :

ما كاد الأمير عبد الرحمن بن معاوية يستقر بقرطبة ، ويثبت قدمه فى الملك — حتى عمد إلى تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، فبنى الجامع بقرطبة ، وبنى مساجد أخرى ، كما أدار السور بقرطبة بعد أن هدمه السمح بن مالك الخولانى صاحب الأندلس ، واستعمل حجره فى ترميم قنطرة قرطبة بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ (٧١٩) .

وقد شيد بنو أمية قصر الدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيدوه بالصفاح والعمد ، وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفناؤه ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، كما بنى الأمير عبد الرحمن الداخل منية الرصافة شمالى قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته ، فاتخذ بها قصراً حسناً ودحا جناناً واسعة ، ونقل إليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وسماه باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه . وما زالت بعض آثار هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا .

وعندما ولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الإمارة عام ٩١٢ م تلقب بألقاب الخلافة عام ٩٣٢ لما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة (٩٢٩ م) ، فتلقب بألقاب الخلافة ليحيى للخلافة ما كان لها من هيبة . فلما استفحل أمره ، ونالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما نالته حتى بلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه الأمم الأخرى — رأى أن يبنى له قصراً يليق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى مدينة الزهراء على بعد خمسة أميال تقريباً غرب قرطبة على سفح جبل العروس .

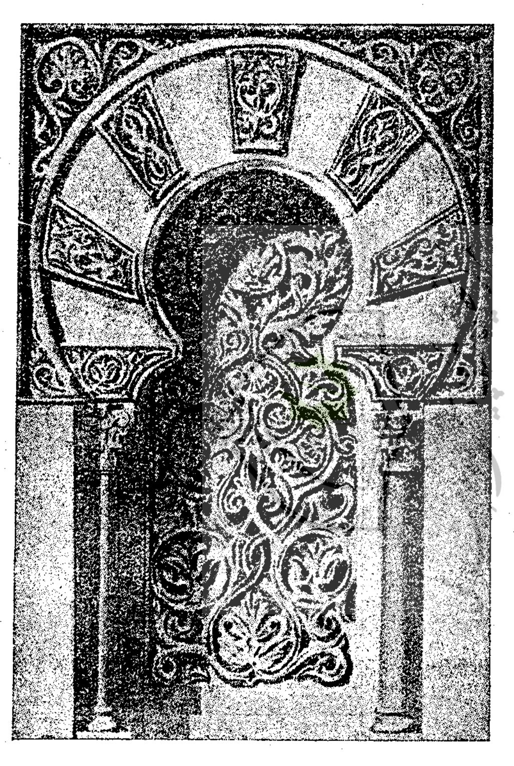
ولقد أمدتنا المدونات التاريخية العربية بمعلومات قيمة عن بناء هذه المدينة الخلافية وعن الفترة القصيرة التى ازدهرت فيها ، وعم بها الرخاء ؛ ثم عن الأسباب التى أدت بها إلى الزوال ، فانحدرت سريعاً إلى القبر ، وكانت ما تزال فى مقتبل عمرها ، ويروى المؤرخون قصة بناء هذه المدينة فيما يشبه الأساطير ، ويعزون تسميتها هكذا إلى جارية أغرم بها عبد الرحمن الناصر واسمها زهراء ، ويعللون ذلك بوجود تمثالها على أحد أبواب

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦ — ١٠٧ .

تفصيلات لزخارف أجزاء من نوافذ قصر الخليفة







المدينة . وللقارئ أن يطالع تلك القصة فى كتب التاريخ(١) .

وحسبنا أن نذكرهنا أنهشيد بها قصوراً كثيرة : منها ، قصر المؤنس ، وقصر الخلافة ، وقصر الزهراء ، وكانت أسقف هذه القصور من القراميد المذهبة ، وعمدها من الرخام والمرمر ، وجدرانها مكسوة بلوحات الرخام المذهبة والفسيفساء .

وقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع تلك القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء ، مما لا يمكن أن يصدقه العقل ولا المنطق ، غير أن ما أسفرت عنه الحفريات أثبت بصورة قاطعة صدق هذا الوصف ، فكشفت عن قطع من أجمل ما أبدعه فن النحت فى الرخام والجص والحجر فى الأندلس فى العصر الوسيط .

ولم يتم بناء مدينة الزهراء فى عهد عبد الرحمن الناصر ، فأتمها ابنه الحكم المستنصر من بعده عام ٩٧٦ م ، وظلت الزهراء فى ازدهار حتى ظهرت مدينة الزاهرة فى الوجود ، وهى مدينة بناها المنصور بن أبى عامر سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨)(٢) غير بعيد من قرطبة ، فأصبحت منافسة للزهراء . . وأقبل عام ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) فكان مؤذناً بالانهيار .

إذ هاجمتها حشود البربر فى ٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠ ، واقتحموها عنوة ، وتبع ذلك مذبحة دامية قضوا فيها على حامية المدينة ، وقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، ونهبوا الدور والقصور ، وأوعز إليهم سليمان المستعين بإضرام النيران فى المدينة ، حتى أصبحت أثراً بعد عين !

صارت الزهراء أكوام خرائب ، وتلال أطلال ، وكانت جدرانها الخربة ما تزال قائمة فى عهد الشريف الإدريسى ، ولم يخطئ أحد الكتاب فى تسميتها « بومبى العربية »

وقد تنوقلت عن روائع هذه المدينة روايات ساقها المؤرخون والجغرافيون العرب والإسبان الذين بهرتهم روائعها الفنية . واجتذبت أكوام الخرائب والارتفاعات التى كانت تضم فى أحشائها بقايا قصور الزهراء اهتمام رجال الآثار فى العصر الحديث بعد أن ظلت حتى مطلع القرن الماضى محاجر غنية تستخرج منها الأحجار وتيجان الأعمدة لتزين دور قرطبة وإشبيلية ، ثم عمد المهندس الأثرى ڤيلاسكيث بوسكو إلى إجراء أول حفائر علمية بها . وكان أول ما أسفر عنه البحث هو الكشف عن الفاصل بين المدرج العلوى والأوسط ، كما أسفرت عن كشف كميات هائلة من الخزف ذى البريق المعدنى وقطع كثيرة من الزجاج ، ثم كشف عن آثار أحد تلك القصور ، وظن ڤيلا سكيث بوسكو أنه قصر الخلافة(١) على حين ثبت فيما بعد أن ما اكتشفه لا يعدو أن يكون جزءاً من قصر الحكم المستنصر بدليل ما نقرؤه على بعض تيجان الأعمدة .

ثم تتابعت الحفائر العلمية على أيدى كبار رجال الآثار مثل دون فيليث هرنانديث ودون رافاييل كاستخون ، فأسفرت عن اكتشاف آثار قصر من قصور الناصر

---

(١) انظر على الأخص كتاب « نفح الطيب » ج ٢ صفحات ٦٥ – ٦٨ ، ١٠٣ – ١٠٥ ، وابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٢٩ – ٣٠ .

(٢) بناها محمد بن أبى عامر على نهر قرطبة ، وتوسع فى تخطيطها ، وبالغ فى رفع أسوارها ، فاتسعت المدينة ، وصارت كاملة بعد عامين . وفى سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) انتقل إليها المنصور ، واتخذ فيها الدواوين ، وبنى كبار قواده ورجال حاشيته بها عظيم الدور ، وشاهق القصور . وقامت بها الأسواق ، وكثرت الأرفاق . وعطل ابن أبى عامر قصر الخليفة بالزهراء ، وصيره بمعزل من سامعه ، وسد باب قصره عليه . وكان لابن أبى عامر بالزاهرة قصر رائع يعرف بالعامرية يفوق قصور الزهراء فى عظمته وجماله ، وخربت الزاهرة بعد وفاة المنصور ، ومضت كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملكية والمنابر ، وتلاشى أمرها ، وأضحت قاعاً صفصفاً .

(١) Velazquez Bosco (R.), Excavaciones en Medina Azahara, Madrid 1923.

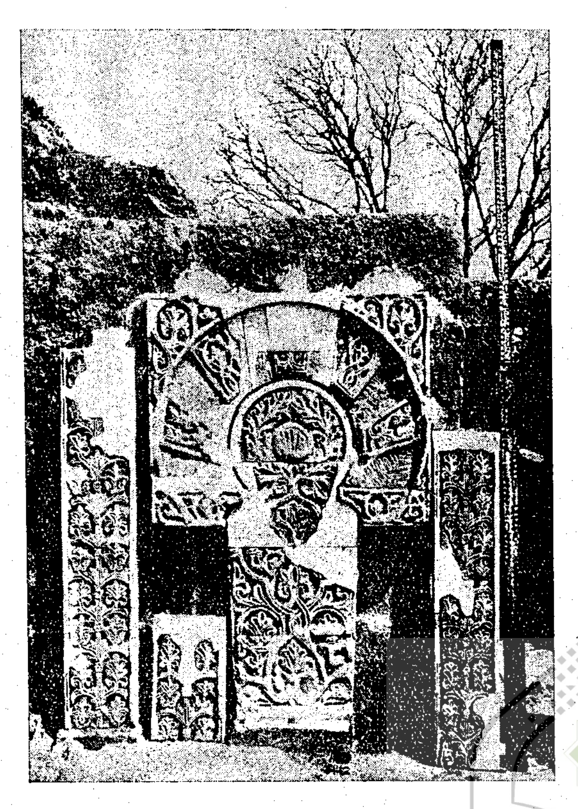
سنة ١٩٤٣[1] ، وهى آثار غنية بالزخارف المحفورة فى الحجر والرخام . وقد نسبت هذه الآثار إلى عبد الرحمن الناصر لوجود اسمه منقوشاً على تاجين صغيرين فيه . ومازالت الحفائر الأثرية جارية حتى وقتنا هذا . وما يزال دون فيليث هرناندث يتابع بحوثه الأثرية وترميماته لقصر الناصر ، فاستطاع أن يعيده إلى صورته الأولى ، كما استطاع أن يكسو جدرانه بالقطع الحجرية التى كانت مدفونة فى الأطلال ، بعد أن لصقها فيما بينها مراعياً فى ذلك تناسب الزخارف وتناسقها .

ويمكننا أن نستنتج مما أسفر عنه البحث الأثرى أن قصور هذه المدينة نوعان :

الأول — الدار التى تقوم على فراغ مركزى هو الصحن الذى تتوزع حوله كل الغرف ، كما سبق أن عرفنا ذلك فى مقالنا السابق[2] .

الآخر — هو القصر الذى يتألف من بلاطات متوازية تفصلها فيما بينها أعمدة تقوم عليها عقود كما هو الحال فى المساجد الأندلسية[3] . وقد اتبع فى هذا النوع نظام القصور الفارسية .

كما أسفر البحث الأثرى عن كشف الموقع الذى كان يشغله جامع الزهراء ، وأغلب أرضيات المجالس والقاعات التى تتألف منها القصور مكسو بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار وقطع الآجر الحمراء فى أشكال هندسية غاية فى الروعة والجمال ، وتكشف



بعض زخارف الزهراء

تيجان الأعمدة وطنوفها وقواعدها وبعض اللوحات الحجرية عن فن رفيع فى الحفر الغائر فى الحجر والرخام ، وينحو هذا الفن فى أسلوبه نحو التقاليد البيزنطية حين ينساب الحفر إلى عمق كبير مما يؤدى إلى إكساب الزخرفة نوعاً من التباين الحاد بين الظل والضوء ، ومعظم التيجان من الطراز الكورنثى والطراز المركب ، وكانت قواعد الأعمدة من الرخام الناصع البياض .

القصور فى عصر ملوك الطوائف :

انتثر سلك الخلافة الأموية فى ١٠١٠ م ، وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة فى جميع أنحاء الأندلس ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالبلاد ، واقتسموا خططها ، وتغلب بعضهم على

(١) انظر كاستخون

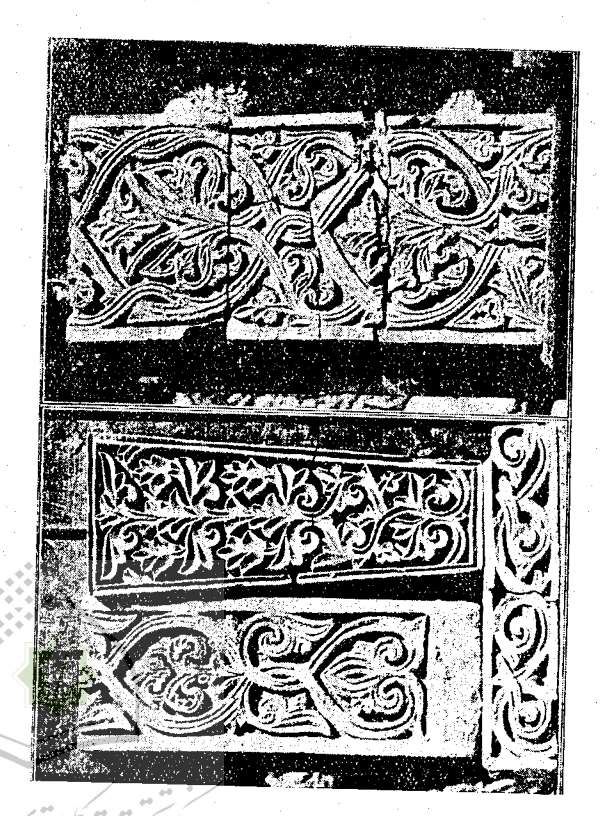
Rafael Castejon : Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara (cordoba). Campana de 1943, Madrid 1945.

وانظر كذلك مقاله

Nuevas excavaciones en Medina al-Zahara; El Salon de 'Abd er-Rahman III, Al-Andalus, 1945, pp. 147-154.

(٢) « التخطيط والعمران فى العصور الإسلامية الوسطى » ، « المجلة » العدد التاسع سبتمبر ١٩٥٧ للكاتب .

(٣) Elie Lambert : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, Al-Andalus, vol.XIV, fasc. 2, 1949. pp. 273-291.



بعض الزخارف النباتية التى كانت
تزين سنجات عقود مدينة الزهراء

بعض ، ثم استقل بأمر هذه البلاد ملوك استفحل أمرهم ، وعظم شأنهم : أمثال بنى عباد بإشبيلية ، وبنى الأفطس ببطليوس ، وبنى ذي النون بطليطلة ، وبنى جهور بقرطبة ، وبنى حبوس بغرناطة .

وكان طبيعياً ، وقد انهار سلطان الخلافة بقرطبة ، أن تلتمس العناصر الثقافية والفنية ، التى كانت تزخر بها ، مجالا أنسب لها فى ظل هؤلاء الملوك ، وكان نتيجة لذلك أن تألفت فى عاصمة كل مملكة من هذه الممالك الصغيرة جماعات فنية حتى لقد اعتبر هذا العصر بحق أزهى عصور الفن الأندلسى بالرغم من التدهور السياسى الذى أخذ يدب فى جسم دولة الإسلام بالأندلس ، ويصيب سلطان المسلمين فى هذه البلاد ، وزحف الاسترداد الإسبانى زحفاً حثيثاً على حين استغرق ملوك الطوائف فى الملاذ ، وعكفوا على اللهو ، واستناموا لحياة الترف ومظاهر الرقة التى كانت تنعم بهما الأندلس فى ذلك العهد ، ولاذوا بالجزيات لألفونسو السادس اتقاء لشره ورغبة فى خطب سلمه ومرضاته ؛ حتى ظهر يوسف ابن تاشفين أمير المسلمين فى المغرب ، وتعلقت آمال الأندلس بنجدته بعد أن ضايقهم ألفونسو فى طلب الجزية . فعبر ابن تاشفين الزقاق إلى الأندلس ، والتقت جيوشه وجيوش قشتالة فى واقعة الزلاقة ، فكانت هزيمة النصارى ، وبداية عصر المرابطين فى الأندلس .

وقد بلغ ملوك الطوائف فى الترف والرقة الغاية ، وأقاموا القصور السامقة والآثار الجليلة الرائعة ، وقد بالغ المؤرخون العرب فى وصفها ، ومن أهمها قصر ابن ذى النون فى طليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة .

قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة :

شيده ملك طليطلة المأمون بن ذى النون (فى ٤٥٥ هـ ١٠٦٣ م) ، واتقنه إلى الغاية ، وأنفق عليه أموالا طائلة ، وصنع فى وسطه بحيرة ، وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ، ويتصل بعضه ببعض ؛ فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصل إليه ، وتوقد فيها الشموع ، فيرى لذلك منظر بديع عجيب .

وقال ابن حيان عن ابن جابر فى وصف أحد مجالس هذا القصر وهو مجلس المكرّم : « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيّد لحظى من بهىّ زخرفه الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه إلى ما فوقه ؛ إزاره

الرائع الدائر بأسّه حيث دار(١) ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ونصاعة التلوين ، قد خرّمت(٢) فى جثمانه صور البهائم، وأطيار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان أشجار وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث ، كما تعلق بعضها ببعض بين مُلاعب ومُثاقف ، ترنوا إلى من تأملها بألحاظ عاطف كأنها مقبلة عليه أو مشيرة إليه ! وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلى إلى ما فوقها ، قد فصل هذا الإزار(٣) عما فوقه كتاب(٤) نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، قد خطّه المنقار(٥) أبين من خط التزوير ، قائم الحروف بديع الشكل ، مستبين على البعد ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت فى أماديح مخترعه المأمون .

وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار وصور أنعام وأشجار تذهل الألباب وتقيد الأبصار .

وأرض هذه البحار(٦) مدحوّة من أوراق الذهب الإبريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير وأبدع تقدير»(١) . وأضاف قائلا :

« ولهذه الدار بحيرتان قد نصّت على أركانهما صور أسود مصوغة من الذهب الإبريز أحكم صياغة ، تتخيل لمتأملها ؛ كالحة الوجوه فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين ، وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المذبح ، محفور من بديع المرمر ، كبير الجرم ، غريب الشكل ، بديع النقش ، قد أبرزت فى جنباته صور حيوان وأطيار وأشجار(٢) ، وينحصر منها فى شجرتى فضة عاليتى الأصلين غريبتى الشكل ، محكمتى الصنعة قد غرزت كل شجرة منهما وسط كل مذبح بأدق صناعة ، يترقى فيهما الماء من المذبحين ، فينصب من أعالى أفنانهما انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية ، فتحدث لمخرجه نغمات تصبى النفوس ، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخم منضغط الاندفاع ، ينساب من أفواهها ، ويبلل أشخاص أطيارها وثمارها بألسنة كالمبارد الصقيلة ، يقيد حسنها الألحاظ الثاقبة ، ويدع الأذهان الحادة كليلة » .

هذا الوصف المعبر الذى ينطق بما كان عليه هذا القصر يجلو لنا ما كان يقوم به المأمون لتجميل قصره ، كما يشير إلى الدور الذى لعبته البحيرات فى تجميل القصر ومجالسه ، وقد اندثر هذا القصر ، ولا نعرف عن أمره شيئاً يذكر . على أن بطليطلة اليوم آثار قصر يعرف بقصر جاليانا فى فحص نهر تاجة ، ويغلب على الظن أنه هو المنية أو القصر الشهير الذى شيده أبو الحسن يحيى المأمون بن ذى النون .

وقد نسج المؤرخون الإسبان حول هذا القصر

(١) يقصد بذلك الكسوة الرخامية التى تغطى الجزء الأدنى من الجدار .

(٢) يعنى الزخارف الحيوانية التى حفرت فى هذه الكسوة الرخامية حفراً غائراً عميقاً من شأنه إبراز هذه الأشكال حتى تبدو كالتماثيل . (Haut-relief)

(٣) اشتقت هذه الكلمة من الإزار ، وهو رداء يغطى الجزء الأسفل من الجسم من الوسط حتى نصفى الساقين ، ومنه فعل تأزر أى أحاط بحزام أو نحوه وما زالت هذه اللفظة تستعمل فى اللغة الاسبانية بالمعنى الذى أشرنا إليه فهى كسوة من الرخام أو الزليج تغطى الأجزاء الدنيا من الجدران (Alizar)

(٤) إفريز أو طراز من الكتابة يحيط بأعلى الجدار .

(٥) الآلة التى ينقش بها النقاش .

(٦) أفاريز أو طرز أرضيتها مزججة وأزنلت بالذهب .

(١) انظر ابن بسام : « الذخيرة » قسم رابع مجلد أول ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) يشبه هذا الحوض —حوض مدينة الزاهرة الذى عثر عليه فى إشبيلية ، وفيه هذه الزخرفة الحيوانية والنباتية نفسها .

قصصاً من الفروسية والأساطير ، وتروى هذه القصص أن أميرة مسلمة تدعى جاليانا كانت تعيش فيه ، وبعد مغامرات عجيبة الشأن انتهى بها الأمر إلى أن تتزوج الإمبراطور شارلمان. وقد بقى من هذا القصر جزء مستطيل أقيم فى طرفيه طبقتان تؤلفان برجين كبيرين ، وتتكون الطبقة الدنيا من قاعة متوسطة ، وتتخلل جدرانها فتحات.

والبناء على الطراز الطليطلى تتناوب فيه صفوف الحجارة وصفوف الآجر ، أما القبوات فمتعارضة ، وقد بقيت بعض عقود نصف دائرية قليلة التجاوز ، وأخرى مفصصة فى مداخل الغرف . أما الزخارف فمن نوع المدجن ، وتحمل رنوك أسرة قزمان مما يفسر إلى حد كبير صحة هذه الرواية[١] .

قصر الجعفرية بسرقسطة :

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة ، وما إليها ، ومن أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة سقوط طليطلة عام ١٠٨٥ م واستشهد عام ١١٠٩ م بظاهر سرقسطة . وكانت سرقسطة فى عهده « جنة الدنيا ، وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقصف »[٢] .

وقصر الجعفرية من بناء أبى جعفر أحمد المقتدر بالله عام (١٠٤٧ — ١٠٨١ م) كما يثبت ذلك نقش بأحد تيجان أعمدته . وقد سمى بالجعفرية نسبة إلى كنيته « أبى جعفر » ، وقد كان المقتدر يسميه « مجلس الذهب » وفيه يقول :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكى خلافكما
كانت لدى كفاية الطلب ![٣]

(١) Marqués de Lozoya : Historia del arte Hispanico t. I, p. 237.

(٢) « نفح الطيب» ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) المرجع نفسه ١ ص ٤١٧ .

قطعة من افريز كان يزين قصر الجعفرية

وما كادت سرقسطة تقع فى أيدى النصارى حتى تحول القصر إلى دير ، ثم إلى حصن استقر فيه ملوك أرغون ، ثم ألحقت به عدة مقصورات دينية نذرت لسان چورج ، ثم أضيف إليه فى عهد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا قاعة العرش الرائعة عام ١٤٩٢ . غير أنه ما لبث أن أقيمت فيه محكمة التفتيش بسجونها الرهيبة ، ثم دعمه فيليب الثانى بمعاقل وحفر من حوله خندقاً .

وفى عهد إيزابيلا الثانية تحول إلى معسكر سنة سنة ١٨٦٦ م ، فهدمت المقصورة الكبرى التى شيدها بدرو الرابع ، وجردت منها زخارفها الإسلامية الرائعة : ويقول جوميث مورينو فى ذلك : « إنه عمل بربرى يندى

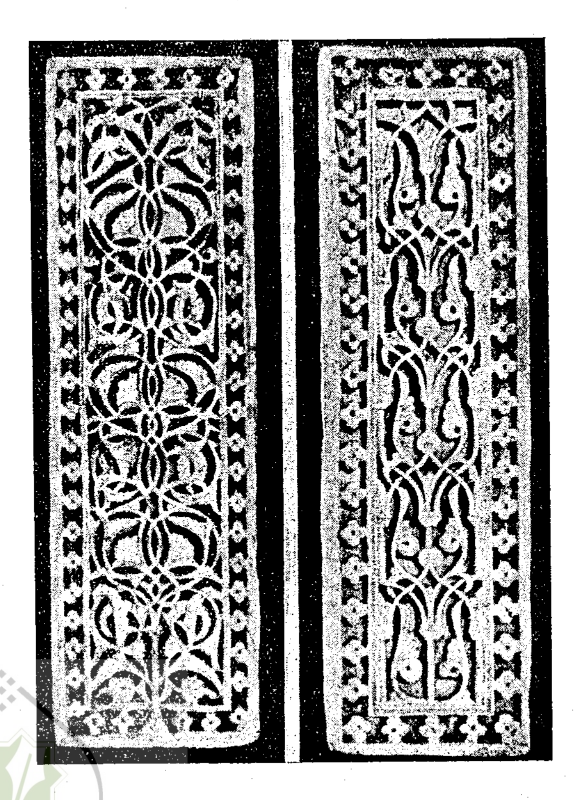
يدعمه تسعة عشر برجاً أسطوانيّ الشكل[١] عدا برج التكريم ، فقد كان مربع الشكل ، بداخله عقود متجاوزة . وفى وسط هذا البناء صحن مستطيل تدور به أروقة جانبية على حين كانت تطل على جانبيه القصيرين مجموعتان من الغرف كل منهما تتألف من قاعة فى الوسط وغرفتين جانبيتين ، كما هو الحال فى قصور بنى نصر بغرناطة وقصور المدجنين[٢] . وكان بناء هذا القصر من الملاط .

وكان إلى جانب برج التكريم قاعة كبيرة لعلها مجلس الذهب الذى كان يعتز به المقتدر ، وتنفتح فى جانبيهاغرفتان إحداهما يشغلها المسجد الذى ما زال قائماً حتى وقتنا هذا ، وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل جنوباً بالصحن . وكان يقابله فى الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة إلى كثرة أعمدتها الرخامية . وقد كشفت بائكة من العقود الإسلامية كانت تتصل بأسطوان المدخل الرئيسى على أثر هدم جزء من مقصورة سان چورج التى فى جنوب قاعة الرخام . وتتألف هذه البائكة من ثلاثة عقود كلها غلو فى التعقيد الزخرفى ، وعقودها طبقتان ، إحداهما فوق الأخرى ، والدنيا منهما من عقود مفصصة متقاطعة ، فوقها عقود أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات . وفيها نشهد اتجاه الفن الأندلسى إذ ذاك إلى الإسراف فى التعقيد والغلو فى حشد الزخرفة والتوسل بالعقود المتقاطعة التى تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة .

أما المصلى فبابه مدجن ، أما داخله فمثمن الشكل ، وأصله مربع طول ضلعه ٥,٤٦ من المتر تحول إلى مثمن بأن أقيمت فى أركانه أنصاف حوائط . ويشغل المحراب الركن الجنوبى الشرقى ، وتعلوه قبيبة مفصصة قوقعية

(١) يتشابه هذا القصر فى إحاطة الأبراج المستديرة به ، والقصور الإسلامية المنبثقة بالصحراء ما بين سورية والعراق كقصر المشتى والأخيضر ، فى حين تتشابه تفاصيله المعمارية الداخلية وزخارفه والعناصر المعمارية والزخرفية للفن الخلافى القرطبى .

(٢) هم أهل الدجن أى المسلمون الخاضعون للنصارى .



لوحات جصية من قصر الجعفرية
محفوظة بمتحف سرقسطة

له الجبين ، من أشد النقط سواداً فى تاريخ إسبانيا »[١] . ولم يستثن من هذا العمل الهمجى سوى المصلى الذى يؤلف بزخارفه — مع ما يحتويه متحفا سرقسطة ومدريد من تيجان أعمدة وعقود جصية رائعة كل ما بقى من قصر بنى هود .

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا التشويه ، ولكن لدينا تصميماً حربياً يصور هذا القصر عام ١٧٥٧ م . وقد استطاع ساڤيرون أن يقيم على هذا التصميم دراسة علمية هامة .

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر إبرة ، ويتألف من سور مستطيل (٨٠ × ٦٨ م)

(١) Gomez Moreno : Ars Hispaniae, tomo III, p. 221
& El arte en Espana e el mogreb, Coleccion Labor, p. 180.

الشكل ، ومدخله على شكل عقد متجاوز يشبه عقد جامع قرطبة ، يحيط به إفريز مستطيل ، وفى بنيقتيه قوقعتان ، أما سنجاته فحشوة بالزخرفة وملساء بالتناوب ، ويزين الجدران السبعة الأخرى عقد أصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط والمنحنيات[1] .

ويحيط به إفريز بارز يتخذ الشكل نفسه ، وتحمل هذه العقود أعمدة ملتصقة فى الجدران ؛ ويجرى بالأجزاء العليا من جدران المصلى طراز زخرفى تعلوه بائكة زخرفية ، تتألف من عقود مزدوجة مفصصة تقوم على أعمدة صغيرة . ويرجح الأستاذ تورى ألبا أستاذ الفنون بجامعة سرقسطة أن هذا المسجد كانت تعلوه قبة قائمة على ضلوع متقاطعة على النحو الذى نراه فى قبة المسجد الجامع بتلمسان .

وليس هذا المسجد — على حد قول أحد مؤرخى الفن الإسبان — بيتاً للصلاة ، « وإنما هو بيت للفن يضم أروع ما أبدعه الفن الأندلسى »[2] . أما العقدان المحفوظان اليوم فى متحفى مدريد وسرقسطة فكانا يزينان القاعة الرئيسية . وكانت هذه العقود فيما يظهر أربعة موزعة على الجدران الأربعة للقاعة ، وفيها يستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوطها ؛ إذ هى تتشابك ، وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة .

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجموعة رائعة من تيجان الأعمدة المرمرية التى تمثل لنا مقدار التطور الذى بلغه الفن الأندلسى بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الإسلام ، ونلمس فى هذه التيجان حرية الأداء التى طبعت هذه التيجان بطابع من الرشاقة وأضفت عليها قواماً أسطوانياً يحمل فى أعلاه رأساً مكعباً . وتكسو هذه التيجان زخارف قوامها ورقة الأكنثى . والتوريقات الدقيقة التى حفرت على طبقتين حفراً غائراً يبرز هذه الزخارف .

(١) انظر Gomez Moreno, Op. cit. p. 226.

(٢) J. Galiay, El Castillo de la Aljaferia, 1906, p. 20.

ولا تزال فى متحف سرقسطة أشلاء كثيرة من هذا القصر نجهل مكانها منه ، وتتألف من ألواح رخامية وشمسيات جصية إن دلت على شىء فعلى مدى ما وصل إليه الفن الإسلامى فى الأندلس من تعقيد رائع يعجزعنه الوصف ، ويعتقد لامبيريث أن قصر الجعفرية هو الأصل الذى حاكاه عرفاء الموحدين فى إشبيلية ، وبنو نصر فى غرناطة ؛ ففى هذه الأبنية يغلب طابع الضعف ، ويشيع استعمال الزخارف الجصية لقلة الأحجار . كذلك أثر قصر الجعفرية فى عمائر الموحدين بنى نصر ، من حيث تصميم الصحن المستطيل والمجنبات المحيطة به[1]

قصر بنى حمود بقصبة مالقة :

كان على بن حمود الحسنى وأخوه قاسم من سلالة إدريس بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة بفاس قد أجازا مع البربر من العدوة إلى الأندلس ، وآزرهما البربر ، فملكا قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦م) ، وقتلوا سليمان المستعين ، وقام بالأمر من بعده على بن حمود الذى تلقب بالناصر . ودام له الملك عامين إلى أن قتله صقالبته سنة ١٠١٨ م ، فولى مكانه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون . ونازعه الأمر يحيى بن على بن حمود ، وكان قائماً على سبتة ، فأجاز إلى الأندلس سنة ١٠١٩ م واحتل مالقة ، وكان أخوه إدريس والياً عليها منذ عهد أبيه ، فبعث أخاه إلى سبتة ، وزحف يحيى إلى قرطبة ، فاستولى عليها سنة ١٠٢١ م ، وتلقب بالمعتلى ، وأخذ يوسع رقعة مملكته ، فاستولى على الجزيرة الخضراء ثم خضع له أهل شريش سنة ١٠٢٥ م وظل قائماً بالحكم حتى هلك عام ١٠٣٧ م ، وخلفه أخوه إدريس بن على ، وضم إليه رندة والمرية ، ولكنه هلك عام ١٠٣٩ م ، وبويع ابنه يحيى ، ولكنه فر إلى قمارش .

(١) Ricardo del Arco : La Aljaferia de Zaragoza, Revista "Arte Espanol", No. 5, 1925, p. 166.

ثم توالت الأحداث على هذا النحو بين أبناء العم ، وأخذ المعتضد بن عباد ملك إشبيلية ،وقد انتهز الفرصة ، ينتزع من بنى حمود المدينة إثر المدينة ، فسقطت أركش ومورور ورندة سنة ١٠٥٣ م ، ثم سقطت فى يده الجزيرة الخضراء سنة ١٠٥٥ م واستولى ابنه المعتمد على جيان سنة ١٠٧٤ م ، وما لبثت دولة بنى حمود أن انقرضت على أيدي المرابطين .

وقد شغلت الحروب والمنافسات والفتن الداخلية أفراد هذه الأسرة عن العمارة والتشييد . ويبدو أن يحيى بن على هو الذى قام ببناء هذا القصر بقصبة مالقة ، ولم يبق من هذا القصر الذى أضيف إليه فى عصر بنى نصر سوي قاعة يبلغ طولها ٧,٥٠ من المتر ، وعرضها ٣ أمتار ، وتنتهى جنوباً بشرفة رائعة تطل على البحر ، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء ، ولكن الزخارف التى تكسو أجزاءها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية .

وعندما بدئت الحفائر فى قصبة مالقة سنة ١٩٣٦ م لم يكن فى الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذى يرجع إلى القرن الحادى عشر . ومدخل القاعة تزينه بائكة من ثلاثة عقود شديدة التجاوز ، مكسوة سنجاتها بزخارف رائعة . ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه فى عهد بنى نصر كما يبدو من أسلوب التيجان ونوع العقود . وتطل هذه القاعة على صحن شأنها فى ذلك شأن الجعفرية بسرقسطة ، وإلى غربها بناء مربع طول ضلعه ٢,٥٠ م ، ويقوم فى كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان ، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوهما على النحو الذى نراه فى عقود زيادة الحكم بجامع قرطبة . وهذه العقود جصية ملساء ، أما القاعة نفسها فكان يدور بجدرانها طراز بارز به زخرفة جصية لم يبق منه إلا أجزاء ملتصقة بالجدران .

وعقود المدخل تتألف من سنجات مزخرفة وأخرى عارية من الزخارف بالتناوب ، كما هو الحال فى عقود جامع قرطبة بزيادة الحكم . أما زخارف عقود المدخل وعقود الشرفة فجصية متعددة الألوان ، تنتشر فيها التوريقات ، وتظهر بينها مراوح نخيلية طويلة ما تلبث أن تلتف حول نفسها ، وكيزان الصنوبر . وفى باطن هذه العقود لوحات موزعة فى امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التى تذكر بفن قرطبة ، وتمهد لزخارف قصر الجعفرية .

